الترعة الخيرة

قصة بقلم فاضل السباعي

من وحي العدوان المثلث الاثيم

تطلعوا اليه ، في دخول القاعة ، بعين لهيفة ولب مستطار ، كان الامر قد بلغ غاية المدى ، وانهم جد مشوقين الى ان يستمعوا منه تفسيرا ،وقد آنسوا فيه السداد والوعي والاخلاص في مناقشة ما يملأ اذهانهم الظامئة الى المعرفة والتحرر والانطلاق !

وعندما استقر به المقام ، هتف خبيث منهم في صوت ادنى الى الهمس، وهو يواري وجهه بالرأس الكبير امامه :

ـ احك لنا حكاية ...

فارتفعت همهمات في ارجاء القاعة تردد هذه القالة، فقد وجدوا فيها الاناء المترع الذي تنهل منه قلوبهم الصادية وتطلعهم الظامىء.. وما لبثت الهمهمات ان تعالت واستبانت ، فاذا هي صوت جهير صريح يعلن في غير تهيب :

ـ احك لنا حكاية ، يا استاذ .. احك لنا حكاية !...

فلم يجد بد من ان يضرب عن الدرس صفحا ، ويحكي .. فذلك ـ هذه الاونة ـ واجب مؤكد لا مرية فيه ، وهو اعود نفعا على الصغار ، وأحوج للعقول ، والصق بالعواطف الموارة الملتهبة :

تحضرني الآن ايها الصغار الاعزاء ـ حكاية قديمة ، لم اروها لكم ، كانت ضيعتنا مسرحا لها . وضيعتنا ، كما حدثتكم فيما مضى من ايام، دار خير وبركة ورخاء . ففيها الماء يفيض من نبع في مكان كنا جرينا على تسميته « الترعة » ، حيث تسترفده بعد ذلك سواقي عدة تتوزعها اراضي الضيعة جميعا . وقد كانت الترعة خيرة معطاء ما سمعنا ـ علم الله ـ انها ضنت يوما على « همام » واخوته الفلاحين الكادحين ، وانما كانت تمدهم دوما بالخير يستحيل مع الجهد الى قطن كالفضة وقمح بلون الذهب، يكتسي ببعضه أهل الضيعة ويطعمون حتى الرواء، ويسعفون بالكثير الفائض سكان المدينة المجاورة وقد كان فيها عمال وتجار واصحاب أعمال .

كانت السنون الطوال قد تقضت على الضيعة وهي تسير على هذا المنوال : ترعة خيرة ، ومحصول وفير ، وحب من غير خصام بين الاخوة الامجاد : « همام » و « أهية » و « هاشم » و « عدنان » و «أيمن» و « طارق » و « نصير » .. كان همام اكبرهم جميعا ، وكانوا لذلك يتطلعون اليه في مزيد من الحب والاحترام . وقد أجمعوا ، منذ اول أمرهم ، على ان تكون الترعة في أراضيه ، يرعاها ويسبغ عليها من وارف حمايته ما يجعلها في حرز من طمع الطامعين وكيد الكائدين ..

ماذا ؟ لكأني اقرأ في احداقكم ـ ايها الصغار الطيبون ـ انكم تسألون: « ومن ذا الذي يطمع في ما لا يملك .. الا ان يكون لصا ؟! » . أجل يا صغاري . لا يطمع سوى اللص في مال غيره . ولكن ، متى خلت الدنيا من لصوص طامعين ؟!

ان الحياة الرخية التي كان يحياها الاخوة ما كانت لتنزل سلاما هنيئا على قلوب فئة من الطامعين ! لقد عز عليهم أن ينعم الاخوة بالحياة كما ينبغي للانسان ان ينعم .. واستكثرت ما تدره عليهم الترعة الخيرة فتملأ معاشهم شبعا وريا !.. أرادتها ان تكون من نصيبها هي ... ولكن ، كيف السبيل الى ذلك ، والاخوة في الضيعة كتلة واحدة لا تتزعزع ولا تلين ؟

لقد كان في المدينة المجاورة شاب من الناس واخلاط من كل جنس ولون .. منهم الطيب الفاضل ، ومنهم من اصطلحت عليه الشرور فملكت عليه قلبه وعقله وبصيرته ... وكان فيهم من يعيش على الكدح الشريف ، وفيهم من يتطلع الى الثراء يواتيه من السلب والنهب والاغتصاب .

ولقد تراءى لهؤلاء السرقة المغتصبين ان يسلبوا الارض التي ترفدها الترعة الخيرة ، ذلك ان ما كان يحيط بالمدينة من اراض وضياع ، لم يكن ـ في الحق ـ في خصب أرض الترعة أبدا . فتمثلوا مدى ضرورتها لهم وانها شريان حياتهم الذي اذا انقطع ماتوا من ظمأ وجوع .. فاذا خيالات الرؤى تداعب أحلامهم فيعزمون على غصب الترعة وارضها ليضمنوا لانفسهم كنزا يحقق لهم العيش الرغيد. ثم انهم ، بعد ان أعملوا الذهن وكدوا العقل ، اتفقوا على التحرش بهمام ، ولي الترعة ، فاما أن يتعهد لهم بامدادهم بما يحتاجون ، واما أن يستلبوه الترعة عنوة واقتدارا !

وأوفدوا ، بعد اللأي ، وفدا منهم الى همام . وهمام ، كما لم احدثكم من قبل ، « جدع » يعجبكم ليس له نظير ، يزيده ان يعلم أن دونه اخوة أشداء ميامين ان استنصرهم طاروا اليه شررا يحرق ولا يذر.

وقابل الوفد هماما :

ـ يا همام .. ان من خيرات ترعتك ما يمسك علينا رمق الحياة ... لولاها لاختطفنا الحمام جماعات من غير اشفاق !..

فقال همام بأريحيته السمحة :

ـ على الرحب ، يا جيرة ... انما خيراتنا في المآل لكم ولاهليكم في المدينة ..

ـ ولكن جيرتك ، يا همام ، يخشون ..

ـ ماذا يخشـــون ؟ أيخشى الجـار جاره ! فلا كانت الجيرة ، اذن !..

ـ لا .. ولكن الزمـان ، كما تعلم ، غدار غير مأمون .. انتم اليوم ، راضون عنا اسخياء كرماء .. وانما يخشي الجيرة ان تحدوكم ، فـي يوم مقبل ، غضبة على اهل المدينة فتقبضوا عنها خيراتكم ، فيصيبنـا من أمرنا بؤس شـديد !..

فقال همـام في لهجة المنكر :

ـ ولكن ، لم الغضبة ونحن جيرة من امد بعيد ؟ وكيف نقبض عنكـم خيراتنا ولنا في مدكم بها مورد لا تستقيم احوالنا من غيره ؟ ألســنا نتقاضى ثمن ما نعطي ، أم نمنح هبة واستحبابا ؟ واننا في غير غنـاء عـن الثمن ، فحاجتنا اليه للاصلاح والتحسين ليست بأقل من حاجتكم الـى ما تنتج أرضنـا من خير !..

ـ صحيح .. ولكن الزمان لا يؤمن جانبه ، يا همام .. نريد تعهدا ..

ـ أي تعهـد تريدون ؟...

ـ ان تتعهدوا لنا حسـن الجوار ..

ـ قد تعهـدنا ، وأحبب بكم من جيران !..

ـ وألا تتوقفوا يوما عن مدنا بما تدره ارضكم من خير ..

ـ قد رضينـا بذلك أيضـا ..

ـ وان تسهروا على صيانة الترعة ورعايتها ، فانها لشريان حياتنا ..

فتضاحك همام وهو يقول :

ـ قد ضمنـا لكم ما طلبتم .. لانه عين طلبتنا ..

وعاد الوفد الى المدينة خزيان خائبا ، بعد ان رد همام عليهم قصدهم بما أبدى من نجدة ونبالة . فجعل الطامعون يأتمرون عليه من جديـد ويبيتون له الكيد واللؤم والغدر الغادر .

ولقد كان فيهم غلام غر أهوج استطاع ـ على حداثته ـ ان يصيب قناعتهم بالقيام بأمر لا يعود عليهم بسوى الخراب المبين . فانصاع لـه منهم شاب فارغ رقيع دينه الكأس والميسر والنساء راح يحـلم بمغـامرة تخلد اسمه ردحا على ألسنة الغواني الملاح ، كما انقاد للغلام كهل بائس كان من قبل ثريا جعل يتطلع الى المغنم السائغ والثراء العريض الموعود ، على حين وقف من الجميع موقف الناقد كهل آخر مجرب وفور اخو مال وغنى وفير ، وقال في لهجة التأنيب :

ـ الاسـاءة الى الجيرة عيب ، يا جماعة !

فرد عليـه الغـلام الغر :

ـ وما العيب يا صاحب الوقار ؟.. نريد الحياة لا يتخللها ظما وجوع !

وأضاف الشـاب الرقيع :

ـ انمـا الحيـاة زق وقينه .. ومغـامرة !

بينما قال الكهل البائس الذي كان ثريا ، بصوت يخنقه الاسى :

ـ انت ما يهمك ؟ ما تملكه لا تأكله النيران .. ولكننا نحن المساكين ، سلبنا الدهر كل ما ملكنا .. وها نحن على الحصير !

وبعد أيام .. صدر عن المدينة الغلام الغر على رأس أنفار من المرتزقة يداعب اطماعهم اغتصاب الترعة من ذويها .. وما ان وطأت اقدامهم طرف الضيعة حتى هب اليهم همام بجهامته يستفسرهم سـبب خرقهم حرمة الجـوار ؟

اعداد « الآداب » الممتازة

اطلبوا الاعداد الممتازة التي اصدرتها « الآداب » في اعوامها الماضية عن « القصة » و « الشعر » و « الفنون » و « المسرح »

فانبرى الغـلام الغر يقول :

ـ نريد هذا الرافد في أرضك قريبا من الترعة نزرع ضفتيه ونأمـن شر الجـوع !

فقال همـــام :

ـ ولكني ما فتئت حياتي امدكم بالخير وأطعمكم من جوع .. ثم كيف تطمعون في ما يملك غيركم ؟!

فأعلن الغلام كمن نفـد صبره :

ـ قصارى القول : نريد هذا الرافد .. وليس لك الا ان تستجيب !!

فتعجب همام لهذه اللهجة يبديها هذا الصعلوك ، وقال باستصغار :

ـ يا غلام ! عد من حيث جئت ، والا فركت لك اذنيك ، وداعبت رقبتك بكفين ، وأذقتك « علقة » لا تنساها ما حييت !!

فاذا الغلام الاهوج يشير للمرتزقة وراءه اشارة الهجوم ، ثم ينكفىء الى قدم همام ويروح يعضها جاهدا ولا يصيب منها المأرب الذي يريد ، فما كان من همام الا ان مد يده الى الغلام ليمسكه من رقبته ويطوح به ويقذفه بعيدا عن الرافد .

وفيما كان همام يطهر ارضه من الصعاليك ، ما رأى الا رسولا يقبـل من صوب المدينة ويدفع اليه رقعة كتب فيها :

« الى السـيد همام ،

« لقد انتهى الينا ان الترعة يهددها خطر ماحق . ولما كنتم قد تعهدتم لنا برعايتها والسهر على سلامتها باعتبار انها بمثابة شريان الحياة لنا ، ولما كان الخطر اعظم من ان تتمكنوا من صده بمفردكم ، لذا فاننا نجد انفسنا مضطرين للقدوم وازلالنا الى الترعة لحمايتها والذود عنها تجاه الكائدين الطامعـين » .

وكان في ذيل الرقعة توقيعان : للشاب الرقيـع والكهل البائس !

ولم يجد همام بدا من ان يترك الصعاليك الصغار يمرحون في طـرف من ارضه ، ليطير الى الترعة يحميها من غزاة آخرين أشد فتكا وخطرا . وهمام ـ ككل فلاح مخلص ـ يحب أرضه وترعته حبا يسري مع الدم في عروقه ، وهو لذلك ما كان ليألو جهدا في ارخاص الحياة حفاظا علـى أرضه ودرءا لكل خطر يتهدد الترعة الخيرة . وهؤلاء الاخرون ـ فيمـا بدا لهمام في وضوح ـ لا يطلبون سوى اغتصاب الترعة بدعوى حمايتها ، وانهم هم الذين انفذوا الغلام وصحبه متحرشين لالهائه بالدفاع عن رافـد صغير حتى يسهل التسلل الى القلب .. الى الترعة !

وتصدى لهم همام على شاطىء الترعة ببسالة ليس لها نظير . وتنادى اخوته الامجاد الى نصرة اخيهم وقرة اعينهم همام ، فهب أمية ، وهاشم ، وعدنان ، وأيمن ، وطارق ، ونصير ، والابناء والاحفاد جميعا .. وبرز كل منهم للمعتدين ، يتدفقون من المدينة الى الترعة ، ليجندل منهم العديد الذي ليس له حصر .. وما كانوا يطولون من الاخوة في ساحة الوغى مطالا ، وانما كانوا يفتكون بالنسوة العزالى والاطفال الآمنين في دورهم قصد الدفع الى الاستسلام . وما كان ذلك الا ليزيد المقاومين ضراوة واستبسالا . وكان الغازي قد قدر ان الفتح لن يطول امده سوى الساعات لانه باغت أهل الضيعة بالعدد الغفير من المقاتلين ، وانه كان يريد الترعة سليمة لا يشوبها هدم وتدمير ، ولكنه اضطر في سبيل الاستيلاء ، الى نسف شطآن الترعة وروافدها ، فهدم الجسر وسد المجاري حتى فاضت المياه واغرقت واتلفت ، والاخوة مع ذلك يقاتلون كالاطواد لا يهنون ولا يستسلمون .. فرد على الغازي كيده وما أتيح له تحقيق مراميه .. الا انه ركب رأسه وظل يهدم ويدمر وينتقم من العزل الآمنين اذ يجندله الابطال الميامين .

ولقد بعث همام ـ في ذلك ـ الى اهل المدينة يستنجدهم لصد العدوان وحفظ الترعة ، والا فانه سيصيبهم من امر مأكلهم رهق شديد . فهب لنصرته في المدينة رجل شريف مطاع من نفر من الشباب ، وقام يعلن : ان المعتدين ان لم يكفوا عن عدوانهم ويجلوا عن الترعة والضيعة جميعا ، فانهم سيلاقون ما لا يطيقون !

وهنا .. رجع الطامعون الى انفسهم يتفكرون : همام واخوته لا تلين لهم قناة ، وانهم ليبدون من الضراوة ما يستحيل معه اغتصاب شبر من ارض الضيعة ، وها هوذا الرجل الشريف يقوم منددا مهددا ..

وكذلك ، ايها الصغار الاعزاء ، ما رأينا الا الطامعين الثلاثة تنشل منهم الايدي ويلوون اعناقهم ويجررون ، مطأطئين في ليلة مدلهمة ، أذيال الخزي والذلة والانكسار ، وقد خلفوا وراءهم قتلى من ازلامهم لا يحصون ، وأصابوا بالخراب الترعة الخيرة التي صبوا الى امتلاكها ليضمنوا لانفسهم الخير كل الخير ، فاذا هي تمتنع عليهم ويصبحون في شر حال ومآل !..

*

وعلت وجوه الصغار اشراقة وأطلت من عيونهم عزمة توحي بالقوة والشمم والاباء . على انه ما لبث ان سأل احدهم ببراءة :

ـ أفي الدنيا أناس كهؤلاء لا يحفلون بحق ولا يقدرون العواقب ! أليست لهم عقول ؟!

قال المعلم في لهجة الصادق :

ـ اجل ، يا بني .. ان في جبلة بعض الناس ميلا الى التجاوز والطغيان ، وهم لا ينصاعون الا للقوة تلجم اطماعهم .. وهؤلاء الطامعون الثلاثة ، لم تعد لهم الجرأة ، من ذلك اليوم ، على الاقتراب من الضيعة ، بعد ان ادركوا ان لهمام واخوته قلبا جسورا وساعدا حازما لا يخطئه الهدف !

فلاذ الصغار بالصمت .. يتفكرون .

حلب — فاضل السباعي

في جميع المكتبات

فرنسواز ساغان

الكاتبة الفرنسية الشابة

تقدم

مرحبا ايها الحزن

(الطبعة الثانية)

ابتسامة ما...

(النص الكامل لروايتها الثانية)

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر

ص .ب. ـ ٣٥١٥ ـ بيروت لبنان